الفقمة او عجل البحر

لا نتذكر اننا رأينا حيواناً اثّر منظرهُ في نفسنا ولا يزال مؤثراً فيها مثل فقمة أتى بها الصيادون الى المدرسة الكلية الاميركية منذ نحو ثلاثين عاماً وطرحوها على البلاط في معرض الحيوان فجعلت تتململ وتميل عينيها في الذين حولها وتتنفس الصعداء وكأنها تستجير بنا وتشكو من جور الانسان. وكان عجزها عن النطق يزيد الناظرين اليها اشفاقاً لان كل لحظة من لحاظها كانت مثل ابلغ رسالة في التوسل والاسترحام

ومثل تلك الفقمة الوف والوف تصاد كل سنة يسلخ جلدها وتصنع منهُ الفراء. وامم الشمال تتناظر في هذا الصيد وكلٌّ منها يطلب احتكارهُ او الاستئثار بالنصيب الاوفر منهُ. ولكن عجول البحر راضية بما قسم لها مشغولة عنهُ بطعامها وشرابها وزواجها حيال الشاطئ حولها وهي لا تهابها كأنها ابن آدم وقد شغلتهُ ملاذ الحياة عن مصارع الردى

وصف بعضهم حياة عجل من تلك العجول فقال :— لما بلغ هذا العجل اشدهُ حاول ان يسبق غيرهُ الى الجزائر التي تقضي فيها عجول البحر فصل الصيف في اقصى الشمال. وكان قد تأخر في الصيف السابق فلم يقع لهُ مكان طيب يقيم فيهِ ولا العدد الكافي من الزوجات مع ما ابداهُ من الهمة والبسالة لان الذين سبقوهُ اختاروا اطيب الاماكن واكثر الزوجات فاضطرَّ ان يقنع بصخر بعيد عن البحر وبثلاث ازواج وذلك بعد قتال عنيف خرج منهُ مثخناً بالجراح وعزم ان يكون هذا العام من السابقين حتى ينال ما يبتغي ويريد. فلم تكد الحرارة تدب في بحار الجنوب حيث تقضي عجول البحر فصل الشتاء حتى اشتدت عزيمتهُ ومنَّتهُ نفسهُ بالسبق فمال وجههُ شطر الشمال وقال بأكر صبوحك خير العيش بأكرهِ. فخاض عباب الاوقيانوس الباسيفيكي ومرَّ بسواحل كليفورنيا واوريغون وهو يسبح تارة ويمخر اخرى كأنهُ السهم قد زلَّ عن الوتر. وكان غالب الاحيان غائصاً في الماء لا يبدو منهُ شيء الاَّ منخراهُ يظهران تارة بعد اخرى لاستنشاق الهواء. وكان السمك كثيراً في طريقهِ فلم يعوزهُ الطعام. والكبير يأكل الصغير سنَّة الله او سنَّة الطبيعة كيف شئت. ولم يكن منفرداً في هذه الرحلة بل كان معهُ عجول اخرى اتخذهُ اخذهُ وجارية عمراهُ وهو وهي على بُعد غايتها وشدة اندفاعها اليها كانت تسنح احياناً ما هي فيهِ فتقضي بعض اوقاتها في اللعب والمرح كأنها قليلة الهموم ظهر المجن وقالت :

اقِدْ طبعك المكدود بالهم راحة يراح وعللهُ بشيء من المزح

وكانت هذه الرحلة خالية من المشاق على نوع ما وتلك العجول ليست عجولاً كما تسمى بل هي ثيران بالغة في منتهى قوتها وشراستها لا يقل طول الواحد منها عن مترين . تهابها الاعداء وتهرب من وجهها حتى القرش (كلب البحر) لا يجسر على الدنو منها الا اذا استغطها. وهي لا تخشى الا شر كركدن البحر لانهُ ينقض عليها فجأةً كالصاعقة ويطعنها بحربته . وتخشى ايضاً شر الاركا لانها فتاكة شديدة البأس . اما العدو الاكبر لها وهو الانسان عبّاد عجول البحر فقد امنت شرهُ لانهُ رأى جلودها ندبية من آثار الجراح لا تباع ولا تشترى فتركها وشأنها وتربص للعجول الصغيرة ابناء الحولين والثلاثة وهو يسميها عزباً لانها لم تتزوج بعدُ

لكن الحياة لا تصفو لمخلوق . ومن مرهُ زمن ساءتهُ ازمان . فبينما هذا العجل امام سواحل كولمبيا اذا بسفينة من سفن حكومة كندا مخرت بين صوار العجول وكادت تمزق شملها فغاص الى اعماق البحر وتفرقت رفاقهُ شذر مذر . وتحقق ربان السفينة ان العجول كلها كبيرة ليس بينها عجل من العجول الصغيرة التي تصاد فتركها وشأنها وسار جنوباً . فلما تحقق صاحبنا ان السفينة ابعدت عنهُ صعد الى وجه الماء وهو لا يكاد يصدق بالنجاة واتجه غرباً فدار حول الاسكا ومرَّ بين جزائر الوتا

الى هنا كانت الرحلة خالية من المشاق ولكن قلما يكون سبيل الحياة سهلاً خالياً من العقبات . رأت هذه العجول مصبَّ نهر من انهار الاصقاع الشمالية غاصًّا بالاسماك من نوع السلمون وهي تصعد فيهِ لكي تبيض وعددها يفوق الحصر . ومهما كانت عجول البحر عفيفة لا تلام اذا رأت مرعىً خصيباً مثل هذا فأسرعت فيهِ . فدخلت بين الاسماك تلتقط وتلتهم وقد تأكل من السمكة نصفها او ثلثها وتطرح باقيها وتقبض على غيرها . وياطالما من ساعة رهيبة على تلك الاسماك تمزقت فيها اوصالها وانصبغ الماء بدمائها ولكن لم يقلَّ عددها ولا خارت عزائمها ولا عدلت عن سيرها بل بقيت جيوشها تجري في النهر كأنها البحر الزاخر مسوقة بدافع حفظ الجنس وهو اقوى غرائز الحيوان

وبينما كان العجل الذي نحن بصدده يسرح ويمرح بين تلك الاسماك وقد اسكرتهُ خمرة الظفر عثر بحيوان غريب المنظر طولهُ نحو اثني عشرة قدماً لهُ في انفهِ حربة طولها ست اقدام من اصلب انواع العاج وكان مستلقياً في قاع النهر ينظر الى الاسماك بعينين صغيرتين كعيني الخنزير ولا يبالي بها لان نفسهُ كانت قد قزَّت من الطعام الدسم واصابهُ شيء من التخمة . واتفق ان عجل البحر لطمهُ باحدى زعنفتيهِ وهو يغوص وراء الاسماك فاستيقظ مذعوراً ووثب كالاسد . ورآهُ العجل قاصداً اليهِ فحاد من طريقهِ بأسرع

من لج البحر وانضمّ على نفسه لكي يقل السطح المعرَّض منهُ لحربة خصمهِ فاصابتهُ الحربة في جنبهِ وجرحتهُ جرحًا بالغًا لكنها لم تومن عزمهُ فعجم على خصمهِ ولطمهُ بين عينيهِ ثم عاد الى نفسهِ وقال ان اتيابي معها طالت لاتخرق دهنهُ ولا تصل الى لحمهِ فابعد عنهُ واكتفى الكركدن بما فعل وغار الى قاع الماء ليهضم طعامهُ

ووصل صاحبنا الى الجزيرة التي كان قاصدًا اليها من اول سفرتهِ وهي صخور قاحلة لا حيوان فيها ولا نبات ولكنها تمتاز على غيرها من الجزائر بان امامها صخرًا كبيرًا تتنفس عليهِ امواج البحر فلا تصلها الاَّ بعد ان تتكسر حدتها . والماء بين الجزيرة والصخر كثير السمك فيجد في الجزيرة منزلاً امينًا وامامها طعامًا كثيرًا . ولم يكد ينزل الى البر حتى تبعتهُ سائر العجول التي كانت آتية معهُ وجعلت تتخاصم وتتصارع على تلك الاماكن حتى ملأ صراخها الفضاء . اما هو فالقى عصاهُ في بقعة اختارها بيتًا لهُ سقفها السماء وجدرانها الجهات الاربع وارضها صخر منبسط يعلو عن سطح البحر رويدًا رويدًا حتى مهما اشتدت الانواء لا تصل الامواج اليهِ . ولم يتم خمس دقائق حتى اتاهُ عجل آخر ينازعهُ ذلك البيت والظاهر انهُ كان بيتهُ في العام الفائت فعاد اليهِ بغريزة حب الوطن . لكن حقوق الملكية في تلك الاصقاع مرتبطة بالقوة فاغلب يتملك . ولذلك لم يكد العجل الثاني يصعد الى البر حتى زأر العجل الاول وجأر وهجم عليهِ وعلا الزئير والجئير واشتركت فيهما سائر العجول وهجم العجلان كانهما اسدان او جبلان وجعل كلٌّ منهما يضرب صاحبهُ بزعنفتيهِ وينهشهُ بانيابهِ ويحاول كلٌّ منهما ان يمسك الثاني بعنقهِ لكي يخطف انفاسهُ . وكان موقف العجل الاول اصلح من موقف العجل الثاني للهجوم والدفاع لأن مؤخرهُ اعلى من مقدمهِ فتصعب زحزحتهُ من مكانهِ واما العجل الثاني فموقفهُ غير امين لان مؤخرهُ اوطأ من مقدمهِ والقوة البدنية التي جعلت العجل الاول يسبق سائر العجول مكَّنتهُ من التغلُّب على خصمهِ فلم يطل الصراع بين العجلين حتى تغلب الاول على الثاني ودفعهُ دفعةً منكرة فالقاهُ عن الصخر الى اليم لكنهُ لم يأمن شرَّهُ بل تربص على حافة الصخر منتظرًا ان يعود اليهِ . ورفع خصمهُ رأسهُ من الماء ودنا من الصخر ووقف هنيهة يشاور عقلهُ كمن يضرب اخماسًا لاسداس والظاهر انهُ شعر بالضعف من نفسهِ والقوة من خصمهِ فعاد الى الماء وذهب الى صخر آخر لا احد عليهِ

ولم تمضِ اربع وعشرون ساعة حتى اضطر العجل الاول ان يحارب اربع حروب اخرى قبل ان اعترفت لهُ العجول الاولى انهُ صاحب ذلك البيت الذي لا ينازَع . ولكن العجول التي اتت بعدها لم تعترف لهُ بهذا الحق فاضطرَّ ان يقيم على حافة الصخر والدماء تسيل منهُ

وان يبق فاتحاً عينيهِ لا يغمض لهُ جفن نهاراً وليلاً وهو على تمام الاهبة لمصارعة كل عجل مفاجئ وهو يكد يأمن شر العجول الجديدة حتى راى ان عيون جيرانهِ من العجول القديمة طامحة الى محلهِ اذا لحظت منهُ اقل غفلة اعتدت عليهِ اما هو فلم يغفل ومرَّت الساعات والايام وهو يصارع هذا ويتهر ذاك . وكانت محلتهُ واسعة عليهِ ولكنهُ كان عازماً ان يكثر زوجاتهِ ويعيش عيشة ارباب البيوت الكبيرة بالسعة والرفاه . وقد اضطرتهُ هذه الحال الى الانقطاع عن الطعام لانهُ لو ترك بيتهُ لحظة يصطاد ما يأكلهُ لاغتصبهُ منهُ غيرهُ وتعذَّر عليهِ استرجاعهُ منهُ فاضطرَّ الى الصوم مكرهاً والبحر يعج بالسمك على قيد باع منهُ لكن جيرانهُ لم لم يكونوا اصلح منهُ حالاً من هذا القبيل والمساواة في الظلم عدل

وانتصف شهر مايو (آيار) وكانت الشمس تدور حول الافق ولا تغيب لحظة الاَّ برهة وجيزة . ومرت ستة اسابيع والعجل صائم لا يذوق طعاماً ويقظان لا يغمض لهُ جفن ولكنهُ كان قد سمن كثيراً بما اكلهُ في فصل الشتاء وخزنهُ في جسمهِ من الغذاء فلم يخل الصوم جسمهُ ولا اضعف قوتهُ

وفي اواخر مايو انقطع ورود العجول الكبيرة وابتدأ ورود العجول الصغيرة والعزب وهي احدث سناً من ان تطلب الزواج او تطمع فيهِ وأتى معها كثير من صغار الاناث اللواتي شأنهنَّ اللعب والمرح . ونزلت كل هذه الجموع على اطراف الصخور حيثما شاءت من غير ان ينازعها احد لان العجول الكبيرة لا تعبأ بها ولا يهمها امرها فاقامت في منازلها تسرح وتمرح كالاطفال لا شغل لها الاَّ الصيد واللعب

وفي الاسبوع الاول من شهر يونيو ابتدأ ورود الاناث الكبار وهنَّ الغرض الذي لاجلهِ اسرعت العجول واختطت المنازل تحت الثنا واليارق . ثمَّ كثر ورودهنَّ حتى كدن يملأن البحر فانهنَّ يبلغنَ اشدهنَّ في سنتين والذكور لا تبلغ اشدها الاَّ في سبع سنوات وعددهنَّ عشرة اضعاف عدد الذكور على الاقل

وتقدَّم الاناث اثنتان كانتا اسرع من غيرهما فلما دنتا من الصخر الذي عليهِ بطل هذه الزوابة اشرأبَّ وتطالَّ لملاقاتهما حتى كاد يطير فرحاً ولم يصدق ان صارت واحدة منهما محاذية للصخر حتى مدَّ رأسهُ وقبض على عنقها وجذبها من الماء والقاها على الصخر وراءهُ . هذا هو لطف عجول البحر وقت الخطبة وكذا يعامل الزوج زوجتهُ يوم الزفاف . ولا بدَّ من انها تألمت من قبضهِ على عنقها ولكنها رضخت لحكم القدر ولسان حالها يقول اذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون . اما هو فلم يلتفت اليها حينئذٍ لان عينهُ كانت ناظرة الى اختها فلم

يكد يرفعها و يلقيها وراء ظهره حتى كان جاره الايمن قد وثب على اختها واختطفها واصعدها الى بيته فزأر صاحبنا وجاء ووثب على بيت جاره وقبل ان يخطو خطوتين التفت الى ورائه واذا جاره الايسر وقد وثب على عروسه ليختطفها وهي جالسة في مكانها غير مبالية كأنها تقول اني اكون للغالب منكما . فعاد ادراجه والقى نفسه عليها وفر فاه ولسان حاله يقول لخاطره تعال الى هنا فاعملك عاقبة الاعتداء على حرم الاشداء

وكثر ورود الاناث حينئذٍ وجعل كل عجل يختطف اللواتي يدنين من بيته ولا يهتم بخطف ما عند جاره . ومرّ يومان كاملان على هذا النسق فصار في حرم صاحبنا ثلاثون زوجة جلسن اليه لا تأخذهن الغيرة بل يفتخرن بان زوجهن اقوى من غيره على اختطاف زوجاته . وقد حاول عجل صغير اغراءهن فلم يفُزْ منهن الا اثنتان واما الباقيات فلم يسعين فعل اتيابه باعناقهن

بقيت الاناث ترد على قلة وصاحبنا يضم الى حرمه كل انثى تدنو منه الى ان صار عنده اكثر من اربعين زوجة وصار بيته اعمر بسكانه من كل البيوت المجاورة له . اما الذكور التي وصلت متأخرة ونزلت في حواشي القرية فلم تنل الا العدد القليل من الزوجات ولذلك كثر تعدي جيرانه عليه واضطر ان لا يغفل طرفة عين فلم يغمض له جفن لا ليلاً ولا نهاراً ونسي امر الطعام لانه انقطع عنه منذ زمان . اربعون زوجة وكل منهن تودّ ان يختطفها زوج اقوى من زوجها او اشد منه حيلة فكيف يهنأ له عيش معهن . فلم يكتفِ بالسهر والانتباه بل اضطر ان يطوف على زوجاته دواماً ولسان حاله يقول

من يرُم ضعفاً مروّج فليبادر يتزوج
عن قريب سترى احدب الظهر معوّج

حتى اذا رأت واحدة منهن انه غضّ طرفه عنها فطمح ببصرها الى غيره من جيرانه لم تشعر الا وانيابه على رقبتها فيرفعها وينفضها نفضاً يعلمها التوبة والندامة والجار الذي يعود بجني حنين لا يرضى من الغنيمة بالاياب قبل ان يحارب ويقهر لكن صاحبنا كان ماهراً في فنون القتال فلم يُغلب على امره قط

ولم تمضِ الا ايام قلائل حتى اخذت الاناث تلد اطفالها فقلّت هموم زوجهن من قبلهن لان الانثى التي تلد لا تعود تهتم بغير طفلها ولم تقل همومه من جهة جيرانه فان الزوج منهم كان يخطف الزوجة وطفلها معها اذا تمكن من ذلك ولكن لما كبر الاطفال قليلاً زال هذا الاعتداء وصارت الامات تفارق اطفالها وتنزل الى الماء تفتش عن طعام تأكله حتى يتغذى جسمها

ويكثر لبنها ولم يبقَ خوفٌ انها تفارق طفلها معما حاول الغير اغراءها . اما زوجها فاضطر ان يقيم في بيته دواماً نهاراً وليلاً ساهراً على اطفال او بعين زوجةٌ لئلاَّ يخطفها احد حتى لم يبقَ منهُ الاَّ الجلد والعظم ولكن لم تفارقهُ قوتهُ وانفتهُ فلم يرَ منهُ جيرانهُ الاَّ اياباً احد من الخناجر

وبينما هو على هذه الحال اقبل عليهِ اعداءٌ لا حيلة لهُ بهم اعداءٌ اشد منهُ ذراعاً واوسع حيلةً — صيَّادو عجول البحر الذين يقصدونها كل عام ليصطادوا منها العدد الكافي لتجارتهم من غير ان يقل نوعها . وهم لا شأن لهم مع العجول الكبيرة التي مثلهُ لان جلودها خشنة بما فيها من ندوب الجراح فيتركونها وشأنها لكن العجول لا تطمئن لذلك بل تجأر وتزأر كأنها هي المقصودة بالذات والصيادون لا يبالون بها بل يقصدون العجول الصغيرة التي لم تبلغ سن الزواج ويتركون الاناث ويختارون الذكور وقد فعلوا ذلك الآن حتى امست تلك الربوع مجزرة من المجازر بعد ان كانت داراً للعب والقصف فتناولوا ما شاؤوا واستحيوا ما يكفي لحفظ النسل

وجاء مع الصيادين شخص آخر لم يأتِ للقتل والنهب بل جاء للدرس والبحث . جاء وآلة التصوير معهُ وجعل يصوّر العجول وبيوتها ولا يعبأ بخشيرها وزئيرها الى ان وصل الى بيت صاحبنا فانجبهُ ما فيهِ من كثرة الزوجات والاولاد وجعل العجل ينتهرهُ وهو لا ينتهر واخذت منهُ الجرأة ان انحنى واسك بطفل من تلك الاطفال ففزع صبر العجل لان عدوهُ هذا هو الانسان سيد المخلوقات الفاتك بها كلها وقال في نفسهِ النار ولا العار

ومن لم يذد عن حوضهِ بسلاحهِ يهدم ومن لا يتقِ الشتم يشتم

ووثب على الرجل يريد الفتك بهِ وحاول الرجل الفرار منهُ قبل ان يصل اليهِ فعثر وسقط على وجههِ ووقعت آلة التصوير امام العجل فنبض عليها وسحقها سحقاً ثم عاد الى الرجل وكان قد نهض من سقطتهِ واخذ عصاهُ وضرب بها العجل فاصاب انفهُ وهو اشد اعضائهِ حساسة فعاد ادراجهُ وقد كاد يغمى عليهِ من شدة الالم واحتمل الرجل قطع آلتهِ وسار في طريقهِ وقبل ان خرج من ذلك البيت التفت واذا العجل قد رفع رأسهُ والتفت حولهُ ليرى ما حلَّ بزوجاتهِ واولادهِ وعاد يزأر على جاري عادتهِ

وفي اواخر يوليو صارت الصغار قادرة على السباحة ورأى العجل وجيرانهُ انهُ لم تبقَ بهم حاجة الى الاقامة في ذلك المكان ولا الى الاحتفاظ بتلك العيال وان العام المقبل قد يكون اصلح من عامهم الحاضر فخربوا بيوتهم وتناسوا عداواتهم وغاصوا في الماء يفتشون عن طعام يأكلونهُ وحوَّلوا وجوههم جنوباً وتركوا تلك الصخور القاحلة لبرد الشتاء